حلم طبيب

خطبة تلاها الاستاذ فكتور فون في اجتماع رؤساء شركات تأمين الحياة باميركا في ١١ دسمبر سنة ١٩١٣

كان في احدى المدن في الجانب الغربي من هذه البلاد طبيب اسمهُ ستت درس الطب في احسن المدارس الطبية وتخرَّج فيهِ ومارسهُ في المستشفى والبيت فكثر اعتماد الناس عليهِ واستدعاؤهُ لمرضاهم. ولم يكن يدَّعي العصمة ولا الإلمام بكل فروع الطب والتفوُّق فيها كلها بل كان اذا عرض لهُ مريض في مرضهِ عقدٌ يصعب حلها استعان بغيرهِ من الاطباء المختصين بذلك المرض. وكان يتقاضى اجوراً كبيرة من الموسرين ويعالج الفقراء مجاناً وقد يساعدهم بثمن الدواء. وكان المرضى يحبونهُ والاطباء يكرمونهُ والناس كلهم يحترمونهُ. كان شديد الفراسة فلا تخطئُ فراستهُ ولا يسهل على احد ان يخدعهُ. ولم يكن يحسب صناعة الطب وسيلة للغنى بل كان منقطعاً لها عن رغبة عملية قاصداً النفع العام. وقد امتاز بالاشفاق على الذين اخطأوا الى انفسهم جهلاً منهم ولكنهُ لم يكن يحجم عن توبيخ الذين يخطئون عمداً مهما كانت منزلتهم رفيعة

مرت عليهِ عشرون سنة وهو يمارس صناعة الطب في بلد واحد فعرف معايب كثيرين من الذين عالجهم ولم يحسب ان الدنيا تخلو من الشرور خالاً ولكنهُ كان قليل الصبر على ما يراهُ من التمادي في الفساد والسير البطيء الذي يسيرهُ اصلاح حال المجتمع الانساني جسداً وعقلاً وادباً

من الرجال الذين كانوا يتطببون عندهُ رجل لهُ معمل كبير فكان يقول لهُ ان العمال الذين في معملك تجود صحتهم ويزيد عملهم اذا زدت اجورهم واصلحت الاماكن التي يعملون فيها حتى تزيد تهويتها ويزيد نورها واذا عاملتهم باللين والتؤدة. اما الرجل فلم يكن يسمع نصحهُ. ومنهم رجل آخر يدير بيتاً تجارياً كبيراً فيهِ كثيرون من الكتاب وهو يسيءُ معاملتهم حتى صاروا يكرهون الحياة. وآخر يقال ببيع ادوية منشوشة مدعياً انها خالية من الغش. ولكن الذين يطببهم لم يكونوا كلهم على هذا النمط بل كان اكثرهم من الاسناء الفضلاء وهذا شأن الناس في كل البلدان فمنهم الصالح والطالح والمستقيم والمعوج

اتفق ذات يوم في شهر نوفمبر الماضي انهُ كان يشاهد المرضى الذين يقصدونهُ في الصباح فدخل اليهِ وليم ابن صديقهِ القاضي طمسن. كان طمسن هذا من رفاقهِ في المدرسة ثم درس

الحقوق وانتظم في سلك القضاء . ودرس ابنهُ في المدرسة التي درس هو فيها ولكنهُ جرى مجرى ابناء هذا العصر الذين لا قيمة للعفَّة عندهم فلما كشف الدكتور سمث عنهُ رأى على جسمهِ بقعاً نحاسية اللون وبعضها متقرح فلم تخفَ عليهِ حقيقتها وبيَّن لهُ انهُ صار الآن مخزناً لميكروبات داء خبيث وقد يمضي كل الذين يتصلون بهِ ولا بدَّ لهُ من ان يعالج سنين كثيرة قبلما ينال الشفاء التام . وجاءتهُ ابنة اخرى من بنات احد اصدقائهِ فرأى على شفتها حبَّة اصابتها من قبلة قبَّلها بها خطيبها مع انهُ من المعروفين بالنزاهة وارتقاء الآداب . وانهُ امرأة بطقلة لها ولدت وفيها ذلك الداء الخبيث اتصل اليها من ابيها . واتاهُ شاب مصاب بالرمد الزهري لا لذنب جناهُ بل لانهُ مسح عينيهِ بمنديل استعملهُ اخوهُ الاكبر قبلهُ . ورأى كثيرين مصابين بالسل في الدرجات الاخيرة وبعضهم من الذين قال غيرهُ من الاطباء ان سعالهم ناتج عن التهاب بسيط في الشعب فاسف لقلة اعتناء اخوانهِ الاطباء . وجاءهُ صديق من اصدقائهِ فرآهُ قد نحف كثيراً عمَّا كان ولدى فحصهِ وجد انهُ مصاب بالبول السكري فلامهُ لانهُ لم يأتِ اليهِ حالما شعر ان جسمهُ اخذ ينحف . وجاءهُ آخر وكان قد تولاهُ الصداع وكثر تغبُّش عينيهِ وهو لا يبالي بذلك فوجد انهُ مصاب بمرض بريط وقد اشتدَّت وطأة الداء عليهِ . وجاءتهُ امرأة زوجة لاحد اصدقائهِ وفي احد ثديها سرطان خبيث اذا نُزع الآن بعملية جراحية فقد تشريح ولكن اتى وقت قصير ولو جاءتهُ عند اول ظهورهِ ونزعهُ حالاً لشفيت منهُ تماماً

ولما انقضى وقت المشاهدة في البيت خرج لمشاهدة الذين استدعوهُ فرأى بين الاغنياء والفقراء منهم ما زاد كبرهُ كدراً . وقصة الشحناء بينهُ وبين احد اصدقائهِ منذ اكثر من سنة وكانت صداقتهما وثيقة العرى ابتدأت من حين شرع في ممارسة صناعتهِ فانهُ كان طبيباً لبيت صديقهِ هذا وحضر ولادة كل اولادهِ وكانوا خمسة وراقبهم في نموهم الى ان بلغوا سن الشباب وكان يعطف عليهِ كما يعطف الوالد على اولادهِ . ومنذ اكثر من سنة بلغهُ ان الابنة الكبرى وعمرها ثماني عشرة سنة وصحتها على اجود ما يكون خطبها شاب يعلم انهُ جسم فاخر فاسرع الى والدها ونهاهُ عن ذلك وحذَّرهُ العاقبة وهو يحسب انهُ فاعل ما تقضي بهِ عهود الصداقة والمحبة . اما والدها فلم يعبأ بنصحهِ بل صرفهُ من بيتهِ بقولهِ هذه مسألة شخصية لا شأن لك فيها . فخرج يجرُّ اذيال الخجل والاسف . وتزوَّجت الابنة بذلك الشاب فندمت ولات ساعة مندم ثم جاء ولتها لتلد فقالت لدويها ادعوا لي الدكتور سمث الذي وُلدت على يدهِ فمضى اليها الآن وولَّدها فاذا ولدها مصاب بالداء الخبيث الذي اورثهُ اياهُ ابوهُ .

ما ابعد الفرق بين السرور الذي شمل الدكتور سمث حينما وُلدت ام هذا الطفل واخوتها و بين الكدر الذي خامرهُ الآن . كان لكل من اولئك الاولاد عيد سنوي لميلادهِ يدعى اليهِ الدكتور سمث ويقضي بالسرور والحبور اما هذا الطفل فلا يحتمل ان يكون لهُ عيد مثلهم . وما اشد كآبة امهِ

عاد الدكتور سمث الى بيتهِ وقد اسودَّت الدنيا في عينيه في ذلك اليوم العبوس وهو يفكّر في كم من البنات سيقضي عليهنَّ قبل ان يتعلَّم والدهنَّ ان يقوهنَّ من الوقوع في اشراك الهوان . ولما وصل وجلس ليستريح اخذ جريدة ليطالعها فرأى ان اساتذة المدرسة الجامعة تهضوا نهضة واحدة لمقاومة ما جبوهُ خرقًا للعادات المألوفة . فقال في نفسهِ ان العلماء والجهلاء سواء في حكم العادات

ثم عاد مرضاهُ في المستشفى فرأى واحداً كاد يهلكهُ الكوكايين ولد كان يبتاعهُ من صيدلية لامراقبة عليها لانها تخص رجلاً وجيهاً من رجال الحكومة وآخر كاد يهلكهُ السكر من حانة تخص وجيهاً آخر . وثلاثين مصابين بالتيفويد لان معملاً من المعامل اتصلت بئر كنيفهِ الى نهر حيث يُستقى منهُ . وصاحب المعمل محب للمال اوقع نصف مليون من النفوس في خطر الموت لكي لا ينفق على اصلاح مرافق معملهِ

ثم زار بيوت مرضاهُ فرأى ولداً مصاباً بالدفتيريا وقد تمكنت منهُ لان امهُ لم تهتم باستدعاء الطبيب حالما رأت البقع البيضاء في حلقهِ بل اعتمدت على العلاجات البيتية . فخقنهُ وحقن اخوتهُ بالمصل المضاد للدفتيريا فوقى اخوتهُ واما هو فلم ينجع فيهِ علاج لان الداء كان قد تمكَّن منهُ

وزار بيتاً آخر فرأى ولداً في حالة يرثى لها عقرهُ كلب منذ بضعة اشهر وكان العقر خمشاً صغيراً شفي حالاً فلم يعبأ بهِ والداهُ والآن ظهرت فيهِ علامات الكلَب . وكان في الامكان كما كل الكلاب ومنعها من عقر الناس ولكن بعض النساء اللواتي يزيّنَّ برانيطهنَّ بأزياش المنتوف من الطيور الحيَّة يحرّمن كما الكلاب ويحتمن القيامة على القائلين بهِ لانهُ عندهنَّ من دلائل القسوة على الحيوان

لكنَّ الغيوم الكثيفة التي رآها في ذلك اليوم لم تحجب كل نور السماء فانهُ رأى بعض الاتقياء يبذلون جهدهم في مساعدة الضعفاء وبعض العلماء في ارشاد الجهال . وكان هو من الاحياء الذين لا يشددون النكير على الذين يخطئون لاعتقادهِ انهم يرتكبون ما يرتكبون اما عن ميل وراثي فيهم او تبعاً للبيئة التي هم فيها فهو اميل الى التماس العذر لهم منهُ الى تعنيفهم .

اما في ذلك اليوم فرأى من الرزايا ما اخفى الحسنات واظهر السيئات ولاسيما ما كان منها ناتجاً عن الجهل المطبق الذي يورث الضرر للنفس وللغير فانهُ يصير جريمة

مضى النهار وخيم الليل وجلس الدكتور سمث في غرفته امام الموقد يتدفأ فران افكاري على اجفانه ونام وحلم انهُ في بلاد اخرى واحوال تخالف الاحوال التي كان فيها ورأى الناس يفدون اليهِ وهم في سن الشباب ذكوراً واناثاً لكي يفحصهم ويعرف هل هم على تمام الصحة او فيهم مرض كامن . ومنهم شاب يودُّ التزوج بفتاة فطلب منهُ ان يفحصهُ فحصاً دقيقاً ليرى هل جسمهُ خالٍ من الامراض وهل اذا رُزق اولاداً يكونون صحيحي الاجسام والعقول لا عيب فيهم فحصهُ كما يفحص من يقصد ان يؤمّن على حياته . امتحن دمهُ ومفرزاته كلها حاسباً اجابتهُ الى طلبهِ فرضاً واجباً عليهِ . ومنهم فتاة اتاها شابٌّ خاطباً فلم تشأ ان تجيبهُ الى طلبهِ قبلما يفحصها الطبيب ويقول لها انها على تمام الاستعداد للتزوج وولادة الاولاد الصحيحي الاجسام . وتاجر كهل من اصدقائهِ تاجرَ فنجح واثرى وتأنّق في معيشتهِ وخاف ان ينالهُ من ذلك ضرر فجاءهُ مستشيراً ففحص بولهُ وارضاءهُ بالاقلال من الماكل الشوية والسكرية والدهنية . ومحام كثرت القضايا لديهِ وهو من الشديدي الاهتمام بها فرأى انهُ صار سريع الانفعال وزاد بولهُ واشتدَّ ضغط دمهِ فجاءهُ مستنصحاً فنصح لهُ ان يخرج للنزهة ويروّض جسمهُ تروّيضاً خفيفاً غير متعب . وسيدة ظهر في ثديها اورام صغيرة يخشى ان تنمو وتصير سرطاناً كبيراً فحذّرها تحذيراً موضعيّاً ونزع الاورام فنجاها من شرها . وشاب يتوي السفر الى بلاد بعيدة فطعّمهُ طعماً واقياً من الحمّى التيفو يدية وكانت هذه الحمّى قد استوطنت من المدينة التي هو فيها بعد ما تنقى ماء الشرب من كل الشوائب . ورجل من المشتغلين بالبحث عن المعادن اراد ان يصعد الى جبل عالٍ ليبحث عن معدن فيهِ فجاءهُ ليفحص قلبهُ قبل الصعود في ذلك الجبل

وحلم الدكتور سمث ايضاً انهُ مضت عليهِ سنون كثيرة لم يرَ فيها سلولاً وان كل احد يذهب الى الطبيب مرتين في السنة ليفحص جسمهُ فحصاً دقيقاً وهو يخالف بين الاطباء فلا يذهب الى طبيب واحد مرتين متواليتين حتى اذا فات طبيباً شيءٌ انبه لهُ الآخر واذا اختلف طبيبان في امر عُرض على لجنة من الاطباء لتفصل فيهِ . وقد زاد متوسط عمر الانسان كثيراً وقلّت الامراض والاوصاب وقامت الوقاية مقام الدواء وانتفى البغاء وانتفت معهُ الامراض الزهرية وزال البله وضعف العقل وقلَّ الجنون حتى صار نادراً جداً لان سببيهِ الاكبرين السكر والزهري بطلا

وبينما كان الدكتور سمث مغتبطاً بلذة هذا الحلم سمع جرس التلفون يقرع واذا بقائل يناديه ويقول هزَّ اني حالة ربان عند زاوية الظلام واحضر معك آلات الجراحة فقد اختصم السكارى . فزالت امارات البشر والسرور من وجهه وسار الى محل الفتنة والجهل والشر

في اولايات المتحدة الاميركية خمسون الفاً من الاطباء مثل الدكتور سمث ومنهم يتألف مجمع الاطباء وهم ينفقون اموالاً طائلة على ما يمنع الامراض ويعلّم الناس كيفية اتقائها ويطلبون من الحكومة والمجالس البلدية ان تسعى السعي المشكور في ما يزيل المرض ويخفف الألم ويطيل العمر . فقد حدث مثل ذلك في هاتنا والبلاد التي انشئت فيها ترعة بناما فزالت منها الحمى الصفراء والحمّى الملارية مع انهما كانتا وطنيتين لمئتين المرضين . اثبت العلم ذلك وعرفهُ الناس ولكنهم متقاعدون عن العمل به

لقد حقق لكم الدكتور فوستر سنة ١٩٠٩ حلم الدكتور سمث حيث قال اني واثق بان الامراض التي يمكن منعها ستمنع كلها والامراض التي يمكن شفاؤها ستعالج كلها وتشفى وان اعظم فوز يفوزهُ العمران هو منع الامراض . وقال الاستاذ فشر وهو من اكبر الثقات في منع الامراض ان متوسط عمر الانسان سيزيد خمس عشرة سنة باستعمال الوسائل العلمية

بلغني ان جمعيات تأمين الحياة مهتمة الآن بان تفحص اجسام المشتركين فيها فحصاً طبياً من وقت الى آخر وعندي انها اذا فعلت ذلك استفادت مالياً لانها تطيل حياة المشتركين فيها وتزيد فائدتها اذا عاونت الاطباء على استئصال الامراض واسبابها فيصير حلم الدكتور سمث حقيقة واني لأرجو انكم تعملون ذلك حبّاً بنوع الانسان لا رغبة في زيادة الربح انتهى

مغزى هذه الخطبة اوضح من ان يوضَّح فعسى ان يرى فيها الكهول والشيوخ فائدة ولو من حيث اتقاء امراض الكهولة والشيخوخة وان يرى فيها الشبان بنوع خاص الفائدة الكبرى من حيث اتقاء الامراض الخبيثة والاستعداد لاخلاف النسل السليم . وان تنتصح بها شركات ضمانة الحياة فتطلب المشتركين فيها مجاناً فتفيدهم وتستفيد منهم وان تقوم الحكومة بما يُطلَب منها للرعية فتمنع كل ما يولّد الامراض الوبائية وينشرها كالمستنقعات التي يتولد فيها البعوض حامل جراثيم والقاذورات التي يتولد فيها الذباب حامل جراثيم التيفويد ونحو ذلك مما تطالب به مصلحة الصحة وحينئذٍ يتحقق الحلم المذكور آنفاً